أخبار الأدب

رواية تسجيل تفاصيل الانهيار: خريف الجنرال أم خريف عصر ؟!

د. رؤوف عباس

19 نوفمبر 2006

حمدى البطران مبدع متميز عرفته الأوساط الأدبية بروايته التى أثارت الاهتمام منذ سنوات "يوميات ضباط فى الأرياف" التى صور فيها واقع جهاز الشرطة فى الريف ، مسلطا الأضواء على العلاقات المتشابكة بين ذلك الجهاز والقوى المحلية والدور الذى تلعبه الشرطة فى خدمة جماعات المصالح خاصة تلك التى ارتبطت بالحزب الحاكم ، و ما صاحب ذلك من تجاوزات للقانون يومها حظى حمدى البطران باهتمام الرأى العام عندما تعرض للمحاكمة العسكرية لكونه ضابطا بالجهاز الذى كشفت الرواية عوراته ، وتضامنت معه الأقلام الوطنية الحرة فى تلك المحنة التى اجتازها ولكن الوزارة ما لبثت أن تخلصت منه بالاحالة إلى المعاش بعد أن رقى الى درجة اللواء دون أن يهنأ بالخدمة بتلك الرتبة لأعوام كما يحدث مع غيره ممن يحظون بالرضا "السامى".

وعندما تقاعد البطران فاجأنا بروايته الجديدة "يوليو 2005" "خريف الجنرال" التى جعل بطلها لواء شرطة متقاعداً ولذلك ظنت الصحف التى نشرت خبر صدور الراوية أنها مذكرات شخصية للكاتب صاغها فى قالب روائى ، ولم تنل الرواية الجديدة من الاحتفاء ما نالته سابقتها ربما يرجع ذلك الى ضعف الحركة النقدية عندنا ، رغم ما " لخريف الجنرال" من أهمية كبيرة - فى رأيى كمتلق يهتم بالشأن العام - يفوق من حيث القيمة "يوميات ضباط فى الأرياف".

***

فقد إتخذ الكاتب من الضابط الكبير المتقاعد إطارا عبر من خلاله عن خريف العصر ، متخذا من الشخصيات الكثيرة التى حفل بها العمل مفردات قام من خلالها بتشخيص الأمراض التى أصابت المجتمع فى العقود الثلاثة الأخيرة لا فى مصر وحدها ، بل وفى الوطن العربى كله ، وذلك على مختلف الأصعدة : الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، فى إطار درامى متماسك لا تشوبه الخطابة ، ولا تشوهه العظات ، ولكن المعالجة الدرامية تترك للقارئ استخلاص الافكار التى يهدف الكاتب الى توصيلها إليه بسلاسة ويسر. فيكشف هذا العمل المتميز عن براعة الحكى عند الكاتب ، وقدرته على ضبط ايقاع الأحداث والشخصيات فى نسيج مترابط ، فجاءت الراوية صورة حية للواقع محملة بالدلالات المعانى .

فى " خريف الجنرال " يقدم الكاتب صورة المجتمع المصرى فى الصعيد فى الستينيات من خلال العلاقات الاجتماعية بين أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة " التى جاء منها الكاتب " مبرزا المودة والتضامن بين سكان المدينة الواحدة أقباطا ومسلمين فى أكثر من صورة من صور التعبير عن الشخصيات والأحداث ، ولا يعنى ذلك إستمرارية هذا النمط من العلاقات الحميمة فى خريف العصر الذى يتخذ منه محورا للرواية ، فقد جاءت التغيرات الإقتصادية التى شهدتها مصر منذ عهد السادات لتصيب البنية الاجتماعية بالخلل، ولتبرز معها قيم الوصولية والانتهازية التى أداتها الوحيدة الأنانية .

بينما يظل من يتمسك بالقيم الاجتماعية السابقة على عهد السادات غريبا وسط عالم مضطرب ، الضابط الكبير الذى خدم الشرطة بأمانة وشرف ، يتقاعد فى الخمسين من عمره ، ولم تتغير أوضاعه المعيشية " حتى قياسا بزملائه " فتعيش أسرته فى شقة متوسطة مطالب أبنائه الذين يتأثرون بما يجرى أمامهم ، ليست لديه سيارة خاصة ، ويرهقه ماديا استخدام التاكسى ، ويفضل عليه " مضطرا " استخدام الميكروباص ، ويجد صعوبة بالغة فى اداء مصالحة الشخصية ومصالح أولاده فى مجتمع لم يعد فيه الحقوق والقانون إطارا مرجعيا يلجأ إليه المواطن ويستظل بحمايته ، بل سادت فيه السطوة والجاه والمحسوبية واستشرت فيه الرشوة .

وفى مشاهد بديعه معبرة يقدم الكاتب النماذج الاجتماعية الجديدة لشخصيات لم تنل حظا من التعليم أصابها الثراء المفاجئ وأصبحت ثرواتها جواز المرور الذى تستخدمه لتدعيم مصالحها إما بصورة عملية مباشرة بالاستفادة من آليات الفساد وشراء الذمم ، أو من خلال عضوية الحزب الحاكم أبدا ، طمعا فى ضمان ترشيح الحزب لتلك الشخصية فى الانتخابات البرلمانية ، فيتسع المجال لتدعيم المصالح واكتساب المغانم دون ضابط أو رابط ..

وتنعكس هذه التغيرات الاجتماعية انعكاسا سلبيا على جيل الشباب الذى يقف حائرا بين ما نشأ عليه من قيم وما يراه فى دنيا الواقع ، فالمدرسة لا تقدم خدمة تربوية ولا توفر المثل والقدوة ، المدرس يدخل مع الطالب فى علاقة استقلالية من خلال الدروس الخصوصية ، فإذا التحق بالجامعة يجد العلاقة بين الطالب والأستاذ استغلالية أيضا والوضع المادى هو

فرس الرهان. وإذا تخرج من مراحل التعليم يجد الحصول على العمل لا يحققه التفوق أو الكفاءة ، ولكن متطلبات أخرى تتوافق مع قيم العصر : المحسوبية والفساد .

وهنا يلجأ الشباب إلى التدين ويقع فى يد من يزيدونه اغترابا عن المجتمع مثلما عبرت عنه شخصية مدرس الفرنسية الذى يؤم الصلاة بالمسجد ويلقى العظات ، ويدير فى نفس الوقت مركزا للدروس الخصوصية ، وله فى عالم النساء غزوات وغزوات ، أو مدرس كلية الهندسة الذى حصل على الدكتوراة من جامعة غربية مرموقة ويطارد الطالبات السافرات ويضايقهن حتى يلتزمن بالحجاب ، فإذا لجأ ولى أمر الطالبة إلى نائب رئيس الجامعة يجده مؤيدا لهذا الاتجاه وكأن النظام منذ السادات يدفع الشباب فى هذا الاتجاه ليصرفهم عن الاشتغال بالسياسة ماداموا لا ينتمون إلى الجماعات الاسلامية ، فإذا حدث ذلك تولى الأمن التعامل معهم بأساليب القمع والبطش بما فى ذلك الحرمان من الإقامة بالمدن الجامعية .

ويقودنا حمدى البطران إلى الوقوف على ما آل اليه التعليم الجامعى من انحطاط من خلال شخصية الأستاذ الجامعى محترف الاعارة بالخليج ، الذى انصرف عن سوق العلم إلى أسواق الاستثمارات واشتغل بالسمسرة بدلا من الاشتغال بالبحث ، ويعمل على قضاء مصالحة بالاستفادة من آليات الفساد الذى أصبحت له دروبه ومسالكه وأعرافه وأصوله ، وكأنه أصبح دستور الحياة .

هذه التغيرات الخطيرة على مدى عقود ثلاثة تجعل بطل الرواية يصاب بالإحباط ، وينتابه إحساس عميق بالاغتراب يؤدى الى شعوره بالعجز وقلة الحيلة الذى عبر عنه الكاتب - ببراعة - فى حالة العجز الجنسى التى أصلبت بطل الرواية، والتى تبدو من حين لآخر على طول الخط الدرامى للرواية ، وتظل هاجسه الرئيسى حتى يدرك من الفحص الطبى أن حالة العجز ليست لها أسباب عضوية ، ولكنها ذات صلة بالحالة النفسية للبطل .

وفى تلك الضفيرة المحكمة التى تربط الشخصيات بالمشاهد فى تناغم بديع نجد الواقع السياسى الذى صاحب تحولات العقودالثلاثة التى مثلت خريف العصر مصورة تصويرا دقيقا فى قالب درامى فقد أعدت البلاد منذ السادات للانضواء تحت جناح الهيمنة الإمبريالية ، تمت تصفية التيار الوطنى بتشجيع الجماعات الإسلامية ، واختزل نصر أكتوبر فى اتفاقات السلام مع الكيان الصهيونى ، ووقع النظام فى مأزق الترويج للديمقراطية وسيادة القانون التى حفزت المعارضة لاتفاقات السلام ، فكان البطش بجميع التيارات السياسية فى سبتمبر 1981 واغتيال السادات ثم متابعة آليات التوافق والتناغم مع عصر العولمة بما فى ذلك الثقافة خاصة الثقافة الاستهلاكية .

ويقدم البطران لقطات موحية لذلك عندما يشير إلى ظاهرة انتشار مطاعم الوجبات الأمريكية السريعة ، وإلى دور الإعلام فى نشر هذه الثقافة من خلال لقطات موحية أيضا مما تقدمه برامج التليفزيون عندنا وفى الفضائيات العربية وما أدت إليه من تشويه للثقافة الوطنية ومسخ للهوية القومية وتبلغ المعالجة ذروتها عندما يدور حوار بين بطل الرواية وصديقه الأستاذ الجامعى حول التدخل الأمريكى فى تنقية برامج الدراسة بالتعليم العام والجامعى من كل ما اتصل بالهوية القومية والقيم المستمدة من التراث القومى ، دون أن تجد مقاومة من النظم الحاكمة فى الوطن العربى .

***

وتكتمل آليات الهيمنة الإمبريالية عندما يبلغ النظام السياسى العربى مرحلة الخريف أو قل - إن شئت - الأفول عندما تستند الهيمنة السياسية إلى الوجود العسكرى الأجنبى : اجتياح صدام حسين للكويت ، وما تلا ذلك من حصار على العراق ، ثم احتلاله على يد الأمريكان وما يرمز إليه اسقاط تمثال صدام من وضع نهاية للنظام العربى الذى عجز تماما عن مواجهة ما يتعرض له من أخطار.

ولكن هل هو عجز لا أمل فى شفائه ؟ يرد حمدى البطران على سؤال القارئ عندما يختم الرواية بنتجية الفحص الطبى لحالة العجز الجنسى عند البطل بأنها حالة نفسية وليست عضوية ، غير أن قطار الصعيد الذى عاد به من القاهرة بعد الفحص يعجز عن التحرك لعطل لا يعرف المدى الزمنى لإصلاحه ويصبح قادرا على الحركة ، ويختم الفصل بخبر قراءة البطل فى الصحف وهو يقتل الوقت بالقراءة انتظارا لإصلاح القطار هو : " تعيين حكومة مؤقتة بالعراق " وخبر آخر عن " القبض على قائد الجناح العسكرى للجماعة الارهابية فى الصحراء الغربية ".

وهكذا لا يكتفى حمدى البطران بتشخيص أمراض خريف العصر ، بل يصف العلاج الناجح لها : التخلص من حالة العجز بالإصلاح الحقيقى ، بمشروع وطنى متكامل للإصلاح ، وإلا حكمنا الاجنبى ، أو وقعنا تحت حكم الجماعات الارهابية .

لا أستطيع الزعم بأن لى من مناهج النقد الأدبى نصيبا ولكننى أرى أن أى دراس للرواية العربية المعاصرة لابد أن يرى فى " خريف الجنرال " تسجيلا لحقبة تعبر عن خريف عصر سادة العجز والإحباط ، عبر عنه الكاتب فى إطار درامى متميز وكم كنت أتمنى أن يهتم صناع الأعمال الدرامية المرئية بهذا العمل بدلا من تلك الأعمال العبيطة التى أفسدت علينا ليالى رمضان .

الكتاب: خريف الجنرال، المؤلف: حمدى البطران